zain

جائزة الطيب صالح
Al Tayeb Salih Award

جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي
(الدورة الثـــامنة)

الرحلة الأوروبية إلى فلسطين
حجيج إلى المكان وإغفالاً لأهله المواطنين

د. محمد شاهين

كتبتُ حتى أقيم جسرًا بيني وبين بيئةٍ افتقدتُها

2018
عام الخضرة

بينما كنت عائداً من المدرسة الثانوية في مدينة الخليل القديمة صباح يوم من أيام الخميس الذي كان التدريس منه ينتهي في ساعات الصباح، استوقفني سائح أوروبي كان يقف على حافة الشارع في منتصف الطريق بين المدينة وقرية حلحول، مسقط رأسي، والتي تبعد عن المدينة ما يقرب من ثلاثة أميال جنوباً. طلب مني السائح أن أكون دليله في رحلته المؤدية إلى المدينة. استقبلت العرض برضى بالغ، إذ استذكرت ما كان يردده معلم اللغة الإنجليزية في المدرسة الثانوية ألّا تضيع علينا فرصة التحدث إلى السائح الناطق بالإنجليزية لما في ذلك من فائدة يمكن أن تعود علينا بتقوية مهارتنا في تلك اللغة. إلى الجهة الشرقية من الشارع الذي كان يقف على جانبه السائح مساحة شاسعة تنتشر فيها أحجار ضخمة وآبار مهجورة تثير دهشة الناظر وتدعو إلى التساؤل: من قطع تلك الأحجار التي يزن الواحد منها آلاف الأطنان؟ ومن حفر تلك الآبار التي تتسع لآلاف الأمتار المكعبة من الماء؟ البعض يقول أن تلك الأحجار من صناعة الجن، والآخر يقول أنها من معجزات الصالحين والأنبياء، ورأي ثالث يقول أنها آثار رومانية، وهل كان الرومان من الجن والإنس حتى يمتلكوا قدرات خارقة؟ بجانب أحد الآبار كان مزارع خليلي يحرث الأرض. طلب مني السائح الذي لا يعرف العربية أن أطلب من ذلك المزارع الابتعاد قليلًا عن أحد الآبار الضخمة والمحاطة بتلك الأحجار كي يتسنى له التقاط بعض الصور. فعلت ذلك.

توجهنا إلى الحرم الإبراهيمي في المدينة، آثر السائح الانتظار حتى يخرج المصلون ليبدأ التقاط الصور. وقبل أن نغادر بهو الحرم أخرج خارطة من جيبه ليشير إلى شجرة بلوط قديمة تقع إلى الغرب على مقربة من الحرم. وقف السائح أمام الشجرة التي يُعتقد أن إبراهيم الخليل هو الذي زرعها. ويبدو أنه كان يأسف أن الشجرة لا تلقى العناية المطلوبة باستثناء علامة من معدن مثبتة على ساقها كتب عليها شجرة إبراهيم الخليل!

انتهت رحلة السائح إلى مدينة الخليل، صعدنا إلى الحافلة المتوجهة إلى بيت لحم، وعندما كنت أهم بالنزول من الحافلة التي تقع قريتي على طريقها بالضبط عرض علي السائح أن أصطحبه إلى مدينة بيت لحم التي تبعد عن قريتي ما يقرب من سبعة أميال إلى الشمال. قبلت العرض خصوصاً وأنه كان مدعوماً باستذكار تلك التوصية من معلم الإنجليزية. وقبل أن تصل المدينة بقليل أخرج السائح خارطته ليشير إلى رغبته في زيارة برك سليمان الأثرية التي تبعد ما يقرب

من ميل عن بيت لحم. بُرك ثلاث أثرية تمتلئ أحياناً بالأمطار الجارية خصوصاً عندما يجود الموسم بكميات غزيرة في فصل الشتاء. وقف على حافة البركة الكبيرة راعي غنم تعبر تجاعيد وجهه عن بؤس حاله وراح ينتشل الماء من البركة ليسقي به قطعان الغنم التي تهافتت على الماء من شدة العطش.

راق المنظر للسائح الذي شرع يمطر الراعي وقطعانه بالصور وكأنه كان يخشى على الطرفين أن يغرقا قبل إتمام المهمة.

توجهنا إلى كنيسة المهد، وقف السائح أمام البهو الفسيح الذي كان يطل على مدخل الكنيسة وطلب مني أن ألتقط الصور بعد أن أودعني الكاميرا وقدّم لي ما تيسر من الإرشاد لاستعمالها، وبينما كان يقف أمام الكاميرا أنشد شيئاً لم أفهم شيئاً منه ولم يضف إلى تقويتي في اللغة كلمة واحدة. وأخرج من حقيبته الصغيرة كتاباً قلّب صفحاته ثم أعاده إلى المحفظة، كان يفعل ذلك عند كل موضع توقفنا عنده من قبل، لم يعن الأمر لي شيئاً آنذاك. كان فرحاً مرحاً وهو يطلب من المارة حوله، وأغلبهم من أصحاب المسيح وفدوا لزيارة مهد المسيح، أن يبتعدوا عنه لئلا تلتقطهم الصورة في المعية! لم يكن في الحسبان أن استمر معه في رحلته إلى باقي الأمكنة في فلسطين افترقنا عن حدود المدينة إذ واصل رحلته إلى القدس شمالاً وعدت إلى بيتي جنوباً.

بقيت أحتفظ بذكرى ذلك اليوم في ذاكرتي عقوداً تلت، ولكن دون أن تنكشف أبعادها التي كان من الطبيعي أن تظل خافية علي آنذاك. ظل ذلك اليوم ذكرى عابرة جنيت منها مفردات بالإنجليزية التقطها من ذلك الرحالة وأستعرضتها في واجب بيتيّ لاحقاً في درس الإنجليزية، إذ نلت عليها ثناءً من الأستاذ وإعجاباً من زملاء الصف. بعد ما يقرب من ربع قرن استذكرت ما ظل عالقاً في ذاكرتي بمناسبة الإطلاع عن مبتدأ كتاب الاستشراق الذي يروي فيه إدوارد سعيد كيف أن ذلك الصحفي المشهور أصيب بصدمة عندما زار بيروت بعد أن حطت الحرب الأهلية أوزاها معبراً عن الأسى الشديد الذي لحقه لأن بيروت التي يراها اليوم في زيارته ليست تلك البيروت التي عرفها وعرفها الآخرون الرحالة قبل ذلك. اتخذ إدوارد سعيد من ملاحظة الصحفي البسيطة هذه مدخلًا لأطروحة الاستشراق ومفادها أن المستشرقين الغربيين استشرقوا الشرق العربي وهم

يرحلون إليه من خلال خطاب صنعوه ليكون منسجماً في بنيته مع الأهداف الاستعمارية، وليطيل في حياة الهيمنة الاستعمارية مما يتطلب تقديم صورة متخيلة لا تعبر عن الواقع المعاش، وغير متفقة مع أي وجود فعلي لمن يقيم في المكان. من هنا يجي اهتمام المستشرق بالمكان بغض النظر عن السكان؛ بالحجر لا بالبشر. فالصحفي لم يأسَ على الدمار الذي لحق بالمواطنين اللبنانيين الذي لحق بحياتهم بسبب الحرب الأهلية، أي أن بيروت أو لبنان أضحت في نظر الصحفي شيئاً وقع عليه الفعل (object) أكبر منها ذات بشرية (subject) لها كيان فاعل أو فعّال.

اختار ادوار سعيد لتوضيح أطروحته عن الاستشراق شخصيات معروفة بكتاباتها عن الشرق العربي أمثال بيرنارد لويس وبيرتون والعديد من أمثالهم ليفند خطابهم الاستشراقي السياسي. ربما لم يتسع المجال في كتابه لاختيار الرحالة العاديين ليكونوا ضمن الحلقة التي طوقت الاستشراق بنفس الخطاب من قريب أو بعيد.

وتشير هذه المداخلة إلى سواد الرحالة الأوروبيين من الذين قصدوا فلسطين وفي جعبتهم أجندة محددة تتمثل في البحث عن مطابقة النصوص التوراتية للمواقع الجغرافية في فلسطين. أي أنهم توجهوا إلى فلسطين ليس كسائر الخلق من الرحالة يدفعهم الفضول في رحلتهم إلى التعرف على وجهة رحلتهم من مختلف النواحي وملء جعبتهم بعد العودة بمعرفة لم يسبق لهم الإلمام بها. أولئك الرحالة توجهوا إلى الأراضي المقدسة (Holy Land) كما كان يحلو لهم تسمية فلسطين، للاطمئنان على أن "أرض الميعاد" هي دليلهم السياحي المستمد من تلك النصوص المقدسة، إذ أن كتب أولئك الرحالة تبت من أجل تثبيت اعتقاد ديني مضى زمنه وانقضى، إذ أن تلك الكتب توحي لنا في أغلب الأحيان أنها صدى الحروب الصليبية، مع أنها كتبت في القرنين التاسع عشر والقرن العشرين، وكأنها وثيقة بنكية تتجدد المطالبة بها مع الزمن كشهادة وهمية مفادها حفظ حقوق من ادعى الملكية في أرض عاش وما زال يعيش عليها غيره منذ قرون. أليست تقارير الرحالة الأوروبيين كما وردت في كتبهم وجهاً آخر للاستشراق يمكن أن نسميه الاستشراق الديني أو التوراتي وأن هذا الاستشراق يحمل في جوهره روح الأطروحة التي يقدمها إدوارد سعيد في الاستشراق، وأن الفرق (إن وجد أي فرق) يكمن في الشكل

لا في المضمون؟ فالاستشراق التواراتي واضح لا لبس فيه ولا يحتاج إلى تفكيك كما هي الحال عند إدوارد سعيد، أي أن للاستشراق بمجمله وجهان أحدهما سياسي باطني وآخر ديني ظاهر للعيان، وربما أراد إدوارد سعيد أن يركز اهتمامه على باطن القول في الاستشراق ليتساوى في النهاية مع ظاهره ويلتقي الاثنان في منظومة الاستشراق التي أخفى المستشرقون من المفكرين الأوروبيين المعروفين وجهها الحقيقي الذي قدمه العديد من أولئك الرحالة الأوروبيين كبيان استشراقي بدون قناع.

كثيره هي الكتب التي قدّم فيها الرحالة الأوروبيون سجلًا مغرضاً عن حجيجهم إلى ما اعتبروه أراضيهم المقدسة. أود أن أقدم هنا بشيء من التفصيل عرضاً لكتاب ربما يكون مثلًا لذلك السجل وهو:

Travels in the East: in ١٨٤٦-٤٧, ١٨٥٠-٥١, ١٨٥٢-٥٣ by John Gadsby, London ١٨٧٥.

وقد اخترت هذا المرجع لأكثر من سبب، فمؤلفه أستاذ في قسم الدراسات الشرقية والتورانية بجامعة مانشستر- بريطانيا، بمعنى أن كتاباته بالضرورة لابد أن يكون لها وقع خاص على المشهد الثقافي في بريطانيا، إذ أن مكانته كما هو واضح من موقعه الأكاديمي تساعد على انتشار توجهاته بين طلابه على الأقل. وسبب آخر هو أن الصورة التي ينقلها إلينا كتابه عن رحلاته في فلسطين (وربما بقية كتبه المشابهة) يتقاطع مع الصورة التي تنقلها كتب الرحالة الذين هم أقل منه شأناً في المرتبة الأكاديمية.

أما السبب الثالث فهو أن الكتاب برمته يجعلني أستذكر تجربتي المتواضعة مع ذلك السائح لأعيد قراءتها من جديد وأتبين ما كان يجري وما زال يجري على أرض الأهل والأجداد، أقل ما يقال فيه أنه غزو صليبي يتجدد مع الزمن بحدة متزايدة!

دعني بداية أشير إلى تصريح يدلي به المؤلف، ويلخص به أجندة رحلته، التي تعد دليلًا للعديد من الرحلات التي سبقت رحلته ولحقتها بما فيها رحلتي التي اصطحبت فيها السائح المذكور من مدينة الخليل إلى مدينة بيت لحم. وهذا هو التصريح: "فقط عندما تكون التوارة في يدنا يجب أن نزور فلسطين؛ إذ أن المضايقات التي يتطلب منا أن نتحملها لا ترجح بما يتحقق لنا من مباهج لو أن نصاً غير التوراة كانت في متناول اليد" (رحلات في المشرق، ص٤٦٠). يجي هذا

التصريح عندما توقف المؤلف الرحالة في طريقه من الخليل إلى بيت لحم عند موقع يدعى عيون الذروة (Ayun Derwa) وأنه من قبيل الصدف أن يكون الموقع على مقربة من البيت الذي نشأت فيه، إذ كان بيتنا يطل عليه، ولكنه من غير الصدفة أن يلتقي المؤلف مع السائح الذي اصطحبته ليتوقف عند موقع عين الذروة فقط لأن ذكره يرد في التوارة،(٢ Sam.iii ٢٦)، توقف المؤلف عند هذا الموقع الذي توقف عنه السائح رغم أن هذا الموقع بعد أقل شأناً مقارنة بالمواقع الأثرية العديدة في البلدة والتي تعج بالآثار الرومانية والمملوكية وغيرها، ربما لأن ذكرها لم يرد في التوراة.

بالمثل يتوقف عند بُرك سليمان الثلاث ويقدّم أدق الأوصاف لها من حيث مقاييسها واتساع كل بركة، ويذكر أن أهل بيت لحم الذين يعتمدون على ما تختزنه تلك البرك من مياه تمدهم عند الحاجة، يتداولون قولًا لسيدنا سليمان وهو أو زوجته "نافورة محكمه" (fountain sealed) كناية عن قدرة تلك البرك بالاحتفاظ بالمياه التي تتدفق فيها من الينابيع الشتوية المجاورة وذلك بفضل إعمارها المتقن وتحصينها بالإسمنت من الداخل مما يعوق أي تسرب للمياه من داخلها.

على مقربة من برك سليمان تطل عليه مدينة بيت لحم التي يصفها "أنها أجمل مدينة صغيرة رآها في حياته (ص٤٦١). يصل كنيسة المهد مولد السيد المسيح، المخلّص كما يختار أن يشير إليه في سياق تقديمه للموقع الذي يصوره بأدق التفاصيل ويجمع له كل ما جعبته من نصوص توراتية تطابق ما تقع عيناه عليه لتجعله واقعاً محسوساً لا يتطرق الشك إلى وجوده.

ومما يؤخذ على المؤلف أنه يفحم التاريخ في عملية سرده لرحلاته، هذا ما يقوله وهو يتجول في مدينة بيت لحم: "دخل إبراهيم باشا المدينة بجيشه المصري وأخرج منها العرب حفاظاً على أرواحهم وبحجة أن المسلمين والمسيحيين لا يمكنهم العيش سوياً، كما يقول. كما أن إبراهيم باشا أخذ معه الصبية المسيحيين ليعملوا في المصانع في القاهرة. "يرد هذا النص بدون سياق سابق أو لاحق. أضف إلى ذلك أنه غير موفق في حين أنه يحرص على توثيق كل قول يقوله ومشهد يمر به في رحلته من الكتاب المقدس. علاوة على ذلك فإن ادعاءه يجانب الصواب فالعرب الذين استثناهم من القتل هم في واقع الأمر خليط من المسلمين والمسيحيين وهذا

يتنافى مع ما يقوله لاحقاً من أن أهل الديانتين الإسلامية والمسيحية لا يمكن أن يتعايشا. وليس بخاف علينا أن التعايش بين المسلمين والمسيحيين في فلسطين قديماً وحديثاً لا يرقَى إليه الشك إلى يومنا هذا.

وفي مقابلة قامت بها محطة فرانس ٢٤ ساعة في كانون الأول من العام المنصرف ذكر متري الراهب قسيس الكنيسة اللوثرثه ورئيس جامعة في بيت لحم أن المسيحيين في فلسطين هم فلسطينيون قبل أن يكونوا مسيحيين وأن المسيح فلسطيني قبل أن يكون مسيحياً. قال ذلك بمناسبة اعتذاره عن مقابلة نائب رئيس ترامب الذي كان ينوي مقابلته عند حضوره إلى بيت لحم. وأكد متري الراهب في مقابلته أن لا علاقة بين مسيحيي أمريكا والمسيحيين في فلسطين. وقد بات معروفاً أن العنصر المسيحي في الضفة الغربية شكل منذ الاحتلال الاسرائيلي عام ١٩٦٧ وما زال يشكل جبهة رئيسية في المقاومة.

يكفي أن نستذكر الدور الريادي في هذه المقاومة جامعتي بيت لحم وبيرزيت اللتين تخضع الإدارة فيهما إلى المكون المسيحي.

أما المغالطة الأهم التي يُقبل الأستاذ جون جادزبي على ارتكابها في معرض وصف رحلته إلى القدس فإنها تتعلق بقصة الأزل: قصة الهيكل المزعوم. أذ يؤكد المؤلف بجرأة متحيزة أن المسجد الأقصى "مسجد عمر" (كما يشير إليه هو بدون أدنى شك مشيد على أنقاض هيكل سليمان، ويصفه أنه أكثر الأبنية فخامة في القدس لما له من حضور قوي يمارسه على الناظر، ويستطرد قائلًا،]طبعاً من قبيل التأكيد[أن المسجد شيّد جزئياً على أنقاض الهكيل الثاني (ص٤٧٠). لا يتسع المجال هنا لتفنيد هذا الزعم، بل يكفي أن نعلم أن إسرائيل حشدت كل طاقات الحفر والتنقيب حول المسجد الأقصى منذ احتلال الضفة الغربية إلى يومنا هذا دون أن تجد دليلًا واحداً يدعم هذا الزعم.

ولو أردنا أن نوجز رحلة جادزبي في ضوء موجز ما ورد أعلاه من بعض التفاصيل لقلنا أنها رحلة التعرف خطياً على المكان دون أدنى اهتمام بمن يقطنه من سكان يعيشون على أرضه، بل أن مجرد ذكر كلمة العرب تَثقل عليه، وكأنه يخشى أن الاعتراف بهم يحولهم إلى حقيقة لا ترضيه. ولمزيد من الإيضاح ها هو يقدم لنا إحصائية يروي فيها عدد سكان القدس مشيراً إلى أنه يتراوح

بين إحدى عشر ألف نسمة واثني عشر نسمة، منهم خمسة آلاف يهودي وثلاثة آلاف مسيحي من مختلف الفئات (ص ٤٨٧) ويسدل الستار على ذكر أعداد العرب المسلمين مع أن إحصائيته تشير بعد الجمع والطرح أنهم قرابة أربعة آلاف. ونحن لا نناقش هنا صحة الأرقام بقدر ما نناقش صمته على ذكر اسم العرب في الإحصائية. ويعلق على حالة البؤس والقمع التي يعيشها اليهود مستدركاً أنهم يقيمون في القدس كشهود عيان على الحقيقة التي تتمثلها النصوص المقدسة وهي ظهور المسيح مستقبلًا، أليس هذا هو ما يعتقد به التوراتيون الجد في البيت الأبيض؟.

في اعتقادي أن الاستطراد هو المفتاح الذي يحمله جادزبي في رحلته إلى فلسطين الأراضي المقدسة. ولو أمعنا النظر في مفتاح هذا الاستطراد من خلال النظريات الحديثة التي يتبناها دريدا ولاكان وفوكو لاتضحت لنا بنية هذا الاستطراد العميقة والتي تخفي وراءها الأجندة التي حملها الرحالة معه إلى بلاد الله الواسعة. يغلق جادزبي مفتاحه هذا الباب على الفتوحات الإسلامية لفلسطين وعلى العهدة العمرية المشهورة التي ينظر إليها على أنها أرفع نموذج في التسامح والتعايش بين الأديان المختلفة، وعلى استعادة القدس على يد صلاح الدين بعد مئة عام من حكم الصليبيين لها. وعلى الكثير الكثير من أحداث التاريخ المشرفة التي مرت بها فلسطين والتي يغفل عنها جادزبي من أجل أن يطلع على القارئ البريطاني بفلسطين تخرج من جعبته التوراتية بوعي أو بدون وعي. لا تعني الرحلة التي قام بها جادزبي والعديد من أمثاله بتقصي الفضاء الذي يمتد من النقب جنوباً إلى الناقورة شمالًا ومن البحر غرباً إلى النهر شرقاً، ولا حتى بتاريخها العربي والإسلامي ولا بأهلها الذين عاشوا قروناً على أرضها بل هي خطاب غربي من صنع الغرب. فالاستطراد أعلاه يوحي إلينا أن الرحلة إلى فلسطين ليست مجرد محاكاة لما يرد التوراة بل أنها ذلك الخطاب الذي يخرج عن المحاكاة بل وعن النصوص التوارتية التي اتخذ منها أولئك الرحالة قناعاً يخفى وراء نصوصه الدينية أطماع غربهم الدنيوية.

يقدم جادزبي رحلته تلك إلى القارئ الغربي –البريطاني بشكل خاص- وفي ذهنه صورة توحي أن فلسطين هبة الكتاب المقدس الذي تعيد نصوصه تركيبها متجاهلًا وجودها مأهولة بأهلها.

من هنا نجد الإشارة إلى الأديرة والبعثات التبشيرية المنتشرة في مختلف أرجاء فلسطين، حيث يقيم جادزبي وهو ينتقل من موقع لآخر وكأن تلك الأديرة هي العنصر البشري الوحيد فوق أرض

فلسطين. والإشارة إلى العرب تأتي لُماما، وبشكل سلبي (سآتي لاحقاً على التفاصيل). علاوة على تركيز يقوم به جادزبي على الوحوش الضارية التي تجوب الخلاء في أمكنة كثيرة مثل بلدة قيسارياً التي يلاحظ أنها خالية تماماً من أي عنصر بشري.

يعلق النقاد أحياناً على رواية موبي ديك الشهيرة أنه لا يوجد فيها حوت مع أن الرواية من أولها إلى آخرها تقدم صراعاً شرساً مع حوت البحر الذي بتر ساق شخصيته الرواية مما دفعها إلى ملاحقة الحوت طيلة حياتها. بمعنى أن الحوت من خيال ميلفيل كاتب الرواية. وفي رواية صورة الفنان في شبابه يرسم لنا جويس مشهداً لفتاة تجلس على شاطئ البحر على مقربة من الشاب ستيفن. الفنان الشاب الذي يجعلنا نراها عند قراءة المشهد كأنها جمال ساحر خطف لب الفنان الشاب لكثرة ما أضفى عليها من أوصاف العشق والغرام الفتان وعندما سئل جويس نفسه عن الموضوع أجاب أن الفتاة عادية جداً وكانت تجلس على الشاطئ مثل أي إنسان. وأن صورتها التي وصلت إلينا في الرواية خيالية أو وهمية من صنع الخيال المتوقد. أما بالنسبة لروايته اللاحقة يوليسيز التي توصف أنها ملحمة القرن العشرين فكثيراً ما يوصي النقاد أن يصطحب القارئ خارطة دبلن ليتقصى آثار المدينة كما تكتبها الرواية، ليتبين في النهاية أن الروائي أبدع دبلن جديدة من الخيال موازية لدبلن الواقع المحسوس. لا يعني هذا المساواة بين الرحالة والفنان، بل على العكس، صحيح أن الطرفين يتقاطعان في دائرة محدودة وهي خلق واقع مغاير للواقع الحقيقي من خلال اللغة، ليصبح النص هو الواقع خيالياً لا الواقع معيشياً. فالنص الذي يقدمه الرحالة يفتقر إلى جمالية الفن، والرحالة لا يتمتع بما يتمتع به الفنان من براءة وحرية الحركة، إذ أن الرحالة يعيد كتابة نص بمنظور ديني جاهز يعبث به ليوافق أجندته. وربما يتوهم الرحالة أنه يقوم بعمل فني يقترب من الرواية لكن عمله في واقع الأمر يظل بعيداً حتى عن أبجديات الفن. والمعروف أن الفن لا يتطلب تطابقاً مع الواقع كما هي الحال في أدب الرحلات.

أما التطابق الذي بجهد جادزبي في البحث عنه فمرده الرغبة الجامحة عند القارئ الفكتوري في الإقبال على أو الواقعية الجافة (crude realism) التي كانت الحقيقة إلى حد كبير عند ذلك القارئ تستند إلى ظاهرة التطابق. ومن ثم نرى الرحالة يدلي اهتماماً خاصاً بأدق التفاصيل، محاولًا بذلك تقليد الرواية الفكتورية (لنتذكر أن رحلات جادزبي كتبت عام ١٩٧٥، الزمن التي ازدهرت فيه الرواية الفكتورية).

وسبب آخر دعى أولئك الرحالة (وأغلبهم من زمن العصر الفكتوري في القرن التاسع عشر) أن يهتموا اهتماماً بالغاً بتفاصيل المطابقة بين نص الكتاب المقدس والواقع المحسوس على الأرض هو إضفاء شرعية إضافية على النص المقدس ليكون حجة محصنة قوية لديهم عند إعادة تطبيقه علمانياً على نفس الواقع لاحقاً لتثبيت أقدام الأجندة الاستعمارية (سآتي على ذلك لاحقاً) في العقد الثاني من القرن العشرين، أي أن المطابقة حملت منظوراً معقداً يتكون من شرعية النص المقدس وتبرير استخدامه في استيلاء الاستعمار لاحقاً على الأرض عندما يحين الأوان.

ولمزيد من الإيضاح نستحضر ما تركت القدس من انطباع في ذاكرة جادزبي، هذه بداية الفصل السابع والثلاثين من سجل رحلته(٤٦٧):

"أفقت صباح اليوم التالي بينما كانت أفكاري تتجه نحو القدس وأنا مستلقياً يقظاً في فراشي. "هل أنا حقاً في القدس؟ مستحيل! ما هذا! هل أنا فعلًا في المدينة ذاتها التي كانت غبطة الأرض بأكملها" (Ps.xlviii.2)

هذه هي القدس التي أوحى له بها الكتاب المقدس (انظر التوثيق بالأحرف اللاتينية)، والتي يشير إليها لاحقاً أنها مدينة "الله الحي القيوم" وكعادته في وصف رحلته يقدم أدق التفاصيل حول المدينة. يقرؤها ويكتبها بعد ذلك كاملة من الكتاب المقدس ويطابق كل موقع على الأرض بنصه التوراتي: من جبل صهيون إلى حديقة جستموني التي يروي أنها قبر مريم العذراء، وأكثر ما يثير الدهشة هو إغفاله ما تتمتع به المدينة من آثار إسلامية وعربية من سورها الجميل العظيم إلى قبابها الرشيقة. حتى المسجد الأقصى فقد اختزل حضوره المهيب، كما يلاحظ هو نفسه، إلى وجوده قائماً على أنقاض الهيكل المزعوم، كما ورد أعلاه. صحيح أن كنيسة القيامة معلم مسيحي هام في القدس، لكنها تلتف بعباءة سجل مطرزة بفن العمارة الإسلامية، لا يخفى إلا على ما من يصعب عليه الاعتراف بالحقيقة الظاهرة للعيان، وذلك انسجاماً مع منهجية انتقائية. أكثر من ذلك أنه لا يذكر شيئاً عن التاريخ الإسلامي للقدس وخصوصاً المعارك الطاحنة بين المسلمين بقيادة صلاح الدين والصليبيين. ربما لأن رحلة جادزبي والعديد من أمثاله تحمل صدى الحرب الصليبية عندما اتخذت الكتاب المقدس سيفها في البداية قبل أن تتوجه غازية إلى ما اعتقدت أنه أرض السيف الحقيقي علاوة على المجازي منه.

وعودة إلى رحلة جادزبي خارج الأماكن الرئيسية المقدسة مثل بيت لحم، والقدس والناصرة التي تحظى بوقع خاص في سجل ذاكرته. يتوجه جادزبي إلى شمال فلسطين، وهو الجزء الذي يتميز بجمال طبيعته وتقدمه النسبي على بقية أجزاء فلسطين، وخصوصاً جبل الكرمل والجليل الأعلى مسقط رأس محمود درويش. من بين التفاصيل التي يذكرها جادزبي" دير جبل الكرمل الذي يعد أفضل دير في الوجود، وهو معد أن يكون أشبه بفندق فيه جميع وسائل الراحة يقوم على مساحة مربعة من الأرض ومعد لإيواء العديد من الأشخاص" (ص٥٢٥) في الوقت ذاته يشير جادزبي إلى موقع مجاور هو قيسارية على أنه خال تماماً من أي وجود بشري اللهم من الوحوش الضارية ومن "العرب المتوحشين" الذين لا يمتلكون شجاعة تلك الوحوش ليستطيعوا التجوال في خلاء قيسارية (ص٥٢٣). وقصة أخرى تلتقطها في تجواله في عكا هي قصة "أحمد باشا الجزار الذي آثر أن يلقب بالجزار تيمناً بأفعاله واسمه الحقيقي أحمد، إذ أنه نشر الرعب في المنطقة كاملة مما أدى إلى أن يهجر المواطنون مدنهم المزدهرة وتتحول إلى قرى أضحت في قبضة اللصوص العرب". ويستطرد جادزبي قائلًا "أن ذلك الجزار قام بذبح سبع زوجات له بتهمة الخيانة الزوجية. وكان غالباً ما ينصب نفسه القاضي والمحلّف ومنفذ الإعدام" (ص٥٢٧).

لابد وأن جادزبي ظن أن الجزار عربي مما جعله يختزل حياته بهذه الإثارة، هل كان جادزبي يعلم أن الجزار لا يمت أصله إلى العروبة وأنه بوسني الأصل عينته السلطة العثمانية والياً على شمال فلسطين وأنه هزم نابليون في حملته على عكا رغم أن نابليون طلب المصالحة معه في البداية؟

لا يتسع المجال هنا لمزيد من الأمثلة الكثيرة المغرضة بل والمسيئة لصورة العنصر العربي الذي كان وما زال يقطن فلسطين والتي ينتقيها جادزبي ليس فقط متحيزاً بل إرضاء للجمهور الفكتوري القارئ الذي كان يُقبل بشغف على قراءة ما هو نادر الإثارة، خصوصاً إذا كان المصدر من المشرق العربي، فكيف إذا كان المصدر هذا مدعوماً من الكتاب المقدس، حتى لو كان التأويل يجانب الحقيقة.

وأبسط تساؤل يمكن طرحه هنا: هل يمكن أن نصدق جادزبي أن أجداد محمود درويش كانوا متوحشين؟ ساعات طويلة استمعت فيها إلى محمود درويش هنا في عمان وهو يروي على مسمعي جزءاً من سيرة أجداده الذين عملوا بجد في الزراعة وفي قطع الأحجار وأعدادها للبناء،

فالبيوت الحجرية الجميلة في البروة قرية محمود درويش التي هدمتها إسرائيل عام ١٩٤٨ كانت هناك إبان رحلة جادزبي. وموجز القول أن الرحلة الغربية إلى فلسطين كانت تهدف إلى اختطاف خارطتها ليصبح الكتاب المقدس مالكها الأول ومن ثم تؤول ملكيتها إلى الغرب الذي يمتلك الكتاب المقدس، أي أن الغرب طور مفهوم الملكية بالنسبة للشرق العربي لتصبح حقاً مقدساً!

أليس هذا المفهوم أو الاعتقاد هو الرحم الذي ولدت منه صكوك الغفران وما تبعها من صكوك، ابتداءً من وعد بلفور إلى وعد ترامب! ولا يخفى علينا أيضاً أن هذا المفهوم للملكية هو الدعامة الرئيسية للاستعمار في القرن التاسع عشر.

وبعد ليس المهم فعلًا أن نستذكر أجندة الرحالة الغربيين بقدر ما هو مهم أن نتعرف على التأثير الذي تركته أدبيات رحلاتهم على بني قومهم بطريقة أو بأخرى، وعلى إدارة سياساتهم وحكوماتهم في التاريخ الحديث. إذ أنها شكلت على مدى عقود القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين معدلًا تراكمياً كثيراً ما اتكأ عليه الساسة المحدثون. لم ينشأ وعد بلفور من فراغ، ولا الانتداب البريطاني لفلسطين، ولا اعتراف ترومان بإسرائيل عام ١٩٤٨، ولا حتى وعد ترامب!

شرفني إدوارد سعيد بتناول الغداء معه في صيف ١٩٨٣ في الحرم الجامعي لجامعة كلومبيا، حيث كان يعمل أستاذاً هناك. سألته ونحن نجلس على المائدة لماذا يقوم الغرب بمعاداتك ومعاداة العرب بكل هذه الحدّة. حرقوا مكتبك ونعتوك زوراً وبهتاناً بصفات لا تمت إلى الصحة بشيء إلى آخر ذلك. أجاب بكلمة واحدة "بيكرهونا" وبعد ما يقرب من عشر سنوات التقيته في عمان. سألته ما الذي تود أن تقوله لياسر عرفات وهو يستعد الآن للارتحال إلى الضفة الغربية ليبدأ بغزة وأريحا كما ينص اتفاق أوسلو. أجاب: سيدرك قائدنا بنفسه بعد أن يجاور إسرائيل وجهاً لوجه أنه وقع في الفخ وربما يدرك أيضاً أننا نعيش في عصر الإمبراطورية الصهيونية الأمريكية أو الأمريكية الصهيونية التي تأخذ ولا تعطي! استدركت قائلًا وهل سيبدأ فعلًا بالحصول على "غزة وأريحا أولًا"؟ أجاب: لن يحصل على شبر واحد.

ذكر لي مؤخراً صديقي طاهر المصري، رئيس وزراء الأردن السابق، أن مفكراً أمريكياً مرموقاً اقترح عليه أن حل القضية في فلسطين يكمن بداية من تنمية شعور بالكراهية لديكم ليكون مناهضاً أو موازياً على الأقل لشعور الكراهية لكم عند خصمكم.

هل هذا يعني أن المشكلة لا تكمن في الاتكاء على الكتاب المقدس الذي يدعو إلى المحبة دائماً، ومن ينادي بنبذ الكره أكثر من السيد المسيح الذي يحث على محبة الجار؟ يحضرني هنا قول مأثور عن الشاعر الكبير بيتس: أن ما يفسد الشعر، هو ما يفسد الدين ألا وهو الناس ,Poetry like religion, gets corrupted by people

فالرحالة الغربيون الذين حملوا معهم الكتاب المقدس إلى الأراضي المقدسة ليقحموا قدسية طرف في قدسية الطرف الآخر إنما فعلوا ذلك بواقع من الشعور بالفوقية التي وقودها كراهية للغير، تجلت في نهاية المطاف بالاستيلاء على مقدرات الغير بغير حق. وهكذا أضحت الرحلة الغربية إلى المشرق العربي حلقة من حلقات الا ستعمار.

www.sd.zain.com